

تفسير البحر المحيط

@ 197 @ الإفساد في الأرض تهيج الحروب والفتن ، قال : لأن في ذلك فساد ما في الأرض وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع والمنافع الدينية والدينية ، قال تعالى : { لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ } ، { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ } ، ومنه قيل لحرب كانت بين طيء : حرب الفساد ، انتهى كلامه . ووجه الفساد بهذه الأقوال التي قيلت أنها كلها كبائر عظيمة ومعاص جسيمة ، وزادها تغليظاً إصرارهم عليها ، والأرض متى كثرت معاصي أهلها وتواترت ، قلت خيراتنا ونزعت بركاتها ومنع عنها الغيث الذي هو سبب الحياة ، فكان فعلهم الموصوف أقوى الأسباب لفساد الأرض وخرابها . كما أن الطاعة والاستغفار سبب لكثرة الخيرات ونزول البركات ونزول الغيث ، ألا ترى قوله تعالى : { فَقُلَاتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ } ، { وَإِن لَّ لُوطًا * اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ } ، { وَلَوْ أَن لَّهُمْ آيَاتٌ } ، { وَإِن لَّ لِقُرءَامَنذُورًا * وَاتَّقُوا } ، { وَلَوْ أَن زههم أقموا التَّوَرَاةَ } ، { وَإِن جيل } ، الآيات . .

وقد قيل في تفسيره ما روي في الحديث من أن الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب ، إن معاصيه يمنع بها الغيث ، فيهلك البلاد والعباد لعدم النبات وانقطاع الأوقات . والنهي عن الإفساد في الأرض من باب النهي عن المسبب ، والمراد النهي عن السبب . فمتعلق النهي حقيقة هو مصادفة الكفار وممالاتهم على المؤمنين بإفشاء السر إليهم وتسليطهم عليهم ، لإفشاء ذلك إلى هيج الفتن المؤدي إلى الإفساد في الأرض ، فجعل ما رتب على المنهي عنه حقيقة منهياً عنه لفظاً . والنهي عن الإفساد في الأرض هنا كالنهي في قوله تعالى : { وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } . وليس ذكر الأرض لمجرد التوكيد بل في ذلك تنبيه على أن هذا المحل الذي فيه نشأتكم وتصرفكم ، ومنه مادة حياتكم ، وهو سترة أمواتكم ، جدير أن لا يفسد فيه ، إذ محل الإصلاح لا ينبغي أن يجعل محل الإفساد . ألا ترى إلى قوله تعالى : { وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا } وقال تعالى : { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامشوا فِي مَنَاكِبِهَا } : { وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ * وَقَالَ * تَعَالَى * وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَّكُمْ * وَلَا نَعْمًا كُوم * إِلَي طعمامه * أَنزنا صبيدنا الماء صبيًا } ، الآية . إلى غير ذلك من الآيات المنبهة على الامتنان علينا بالأرض ، وما أودع فيها من المنافع التي

لا تكاد تحصى . .

وقابلوا النهي عن الإفساد بقولهم : { إِنْ زُمَّ مَا زَخْنُ مُصْلِحُونَ } ، فأخرجوا الجواب جملة اسمية لتدل على ثبوت الوصف لهم ، وأكدوها بإنما دلالة على قوة اتصافهم بالإصلاح . وفي المعنى الذي اعتقدوا أنهم مصلحون . أقوال : أحدها : قول ابن عباس : إن مملأتنا الكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين . والثاني : قول مجاهد وهو : أن تلك المملاة هدى وصلاح وليست بفساد . والثالث : أن مملأه النفس والهوى صلاح وهدى . والرابع : أنهم ظنوا أن في مملأة الكفار صلاحاً لهم ، وليس كذلك لأن الكفار لو ظفروا بهم لم يبقوا عليهم ، ولذلك قال : { أَلَا إِنَّ زَنْهَمُ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلا كِنَ لَ } .